الإخلاص
من خلال القرآن الكريم

الدكتور منصور كافي
أستاذ محاضر بكلية العلوم الاجتماعية
والعلوم الإسلامية ــ باتنة

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن تبع نهجه إلى يوم الحق المبين وبعد:

فالموضوع الذي أنا بصدد دراسته هو الإخلاص وسببه ما أصاب المسلمين في هذه الأعصار من انحراف.

وتناولته وفق الخطة التالية حيث كان الحديث أولا عن مفهوم الإخلاص في اللغة والاصطلاح وثانيا عن معاني الإخلاص الواردة في القرآن الكريم أما ثالثا فتطرقت فيه إلى الحديث عن قيمة الإخلاص.

أولا: مفهوم الإخلاص:

أ – في اللغة:

– **عند ابن فارس:** { خلص: الخاء واللام والصاد أصل واحد مطرد وهو تنقية الشيء وتهذيبه. يقولون خلصته من كذا وخلص هو وخلاصته السمن. ما ألقي فيه من تمر أو سويق ليخلص به}[1].

– **عند أبي البقاء الكفوي:** { قال الخالص: كل شيء يتصور أن يشوبه غيره وإذا صفا عن شوبه فخلص منه يسمى خالصا، وسمي الفعل المخلص إخلاصا. الخالص: هو مازال عنه شوبه بعدما كان فيه، والصافي يقال لما لا

شوب فيه. الإخلاص: هو القصد بالعبادة أي أن يعبد المعبود لها وحده وقيل تصفه السر والقول والعمل " وأنه كان مخلصا" ، بفتح اللام. أي اجتباه الله واستخلصه}2.

– عند ابن منظور: قال: { خلص الشيء بالفتح يخلص وخلاصا إذا كان نشب ثم نجا وسلم، وأخلصه وخلّصه وأخلص لله دينه: أمحضه وأخلص الشيء اختاره. وقرئ: إلا عبادك منهم المخلصين، والمخلصين قال ثعلب: يعني بالمخلصين الذين أخلصهم الله عز وجل. الزجاج: وقوله واذكر في الكتاب موسى إنه كان مخلصا، وقرئ مخلصا، والمخلص الذي أخلصه الله جعله مختارا خالصا من الدنس والمخلص: الذي وحد الله تعالى خالصا، ولذلك قيل: سورة الإخلاص: " قل هو الله أحد " سورة الإخلاص. قال ابن الأثير: سميت ذلك لأنها خالصة في صفة الله تعالى وتقديس، أو لأن اللفظ بها قد أخلص التوحيد لله عز وجل. وكلمة الإخلاص كلمة التوحيد، وقوله تعالى: " من عبادنا المخلصين"، وقرئ المخلصين، فالمخلصون المختارون والمخلصون الموحدون.

والإخلاص في الطاعة ترك الرياء وقد أخلصت لله الدين وأما قوله عز وجل: " قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة " قرئ خالصة وخالصة المعنى أنها حلال للمؤمنين وقد يشركهم فيها الكافرون، فإذا كان يوم القيامة خلصت للمؤمنين في الآخرة ولا يشركهم فيها الكافرون} 3.

ب – في الاصطلاح:

الإخلاص: " أنه محبة الله وحده واردة وجهة خاصة "4 كما قال أيضا: " أعلم أن كل شيء يتصور أن يشوبة غيره، فإذا صفا عن شوبه وخلص منه سمي خالصا، ويسمى الفعل المصفي المخلص، إخلاصا قال الله تعالى: " من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين"، فإنما خلوص اللبن

أن لا يكون فيه شوب من الدم والفرث ومن كل ما يمكن أن يمتزج به، والإخلاص يضاده الإشراك فمن ليس مخلصا فهو مشرك، إلا إن الشرك درجات. فالإخلاص في التوحيد يضاد الشريك في الإلهية. والشرك منه خفي، ومنه جلي. وكذا الإخلاص والإخلاص وضده يتواردان على القلب فمحله القلب..."5

إذن فالإخلاص: أن يقصد الإنسان بقوله وعمله وجهاده وجه الله تعالى وابتغاء مرضاته.

ثانيا: معاني الإخلاص في السياق القرآني:

ورد الإخلاص في القرآن الكريم على أربعة أوجه حسب الاستقراء: وهي:

1 - الإخلاص بمعنى الاصطفاء:

قال تعالى " إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار وإنهم لمن المصطفين الأخيار" يقول عبد الرحمان بن الجوزي: {أي اصطفيناهم وجعلناهم لنا خالصين، فأفردناهم بمفردة من خصال الخير، ثم أبان عنها بقوله: " ذكرى الدار" وفي المراد بالدار هاهنا قولان أحدهما: الآخرة. والثاني: الجنة.

وقرأ نافع: " بخالصة ذكر الدار"، فأضاف خالصة إلى " ذكر الدار" قال أبو علي: تحتمل قراءة من نون وجهين أحدهما: أن تكون ذكرى بدلا من خالصة والتقدير: أخلصناهم بذكر الدار. والثاني: أن يكون في المعنى أخلصناهم بأن يذكروا الدار بالتأهب للآخرة والزهد في الدنيا. ومن أضاف فالمعنى: أخلصناهم بإخلاصهم ذكر الدار بالخوف منها. وقال ابن زيد أخلصناهم بأفضل ما في الجنة}7.

وقال الزمخشري: { أخلصناهم جعلناهم خالصين " بخالصة " بخصلة خالصة لا شوب فيها، ثم فسرها بذكرى الدار شهادة لذكرى الدار بالخلوص

والصفاء وانتفاء الكدورة عنها، وقرئ على الإضافة والمعنى بها خلص من ذكر الدار على أنهم لا يشوبون ذكرى الدار بهم إنما همهم ذكرى الدار لا غير. ومعنى ذكرى الدار: ذكراهم الآخرة دائما ونسيانهم. أو تذكيرهم الآخرة وترغيبهم فيها وتزهيدهم في الدنيا كما هو شأن الأنبياء ديدنهم. وقيل ذكرى الدار: الثناء الجميل في الدنيا ولسان صدق الذي ليس لغيرهم. فإن قلت: ما معنى أخلصناهم بخالصة؟ قلت معناه أخلصناهم بسبب هذه الخصلة وأنهم من أهلها، أو أخلصناهم بتوفيقهم لها واللطف بهم في اختيارها. ويعضد الأول قراءة من قرأ بخالصتهم: المصطفين المختارين من أبناء جنسهم}8.

أما ابن كثير يقول: { قال مجاهد أي جعلناهم يعملون للآخرة ليس لهم هم غيرها. وكذا قال السدي ذكرهم للآخرة وعملهم لها. وقال مالك بن دينار نزع الله تعالى من قلوبهم حب الدنيا وذكرها وأخلصهم بحب الآخرة وذكرها. وكذا عطاء الخرساني. وقال سعيد بن جبير: يعني بالدار الجنة يقول أخلصناهم لهم بذكرهم لها. وقال في رواية أخرى: ذكرى الدار عقبى الدار. وقال قتادة: كانوا يذكرون الناس الدار الآخرة والعمل لها. وقال ابن زيد جعل لهم خاصة أفضل شيء في الدار الآخرة}9.

ومن خلال ما سبق يتبين لنا أن كل من ابن الجوزي والزمخشري وابن كثير يتفقون في تفسير هذه الآية وإعطائها عنوانا خاصا هو أن معنى قوله " إنا أخلصناهم " أي إنا اصطفيناهم واخترناهم.

2 – الإخلاص بمعنى الخلوص من الشوائب:

قال تعالى: " وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين "10 يقول ابن الجوزي: { قرأ أبو عمرو، وابن كثير وحمزة والكسائي نسقيكم، بضم النون ومثله المؤمنين. وقرأ نافع وابن عامر وأبوبكر عن عاصم نسقيكم بفتح النون فيهما. وقرأ أبو جعفر

تسقيكم بتاء مفتوحة. وكذلك في المؤمنين وقد سبق بيان الأنعام. وذكرنا معنى العبرة في آل عمران والفرق بين " سقى " و " اسقى " في الحجر فأما قوله: " مما في بطونه "، فقال الفراء: النعم والأنعام شي واحد. وهما جمعان. التذكير إلى معنى النعم، إذا كان يؤدي عن الإنعام.. لأن اللبن والألبان في معنى. قال: وقال الكسائي أراد نسقيكم مما في بطون ما ذكرنا وهو صواب... وقال أبو عبيدة: الهاء " في بطونه" للبعض، والمعنى. نسقيكم مما في بطون البعض الذي له لبن لأنه ليس كل الأنعام لبن، وقال ابن قتيبه: ذهب بقوله " مما في بطونه " إلى النعم والنعم يذكر ويؤنث. والفرث: ما في الكرش. والمعنى: أن اللبن كان طعاما. فخلص من ذلك الطعام دم، وبقي منه فرث في الكرش. وخلص من ذلك الدم لبنا خالصا سائغا للشاربين، أي سهلا في الشرب... وقال بعضهم: سائغا أي لا تعافه النفس، فإن كان قد خرج من بين فرث ودم. وروى أبو صالح عن ابن عباس قال: إذا استقر العلف في الكرش طحنه. فصار أسفله فرثا، وأعلاه دما وأوسطه لبنا. والكبد سلطة على هذه الأصناف الثلاثة، فيجري الدم في العروق واللبن في الضرع ويبقى الفرث في الكرش}11.

ويقول ابن جرير الطبري: {اختلف القراء في قراءة قوله " نسقيكم " فقرأته عامة أهل مكة والعراق والكوفة والبصرة سوى عاصم، ومن أهل المدينة أبو جعفر ونسقيكم بضم النون بمعنى أنه أسقاهم شرابا دائما وكان الكسائي يقول العرب تقول أسقيناكم نهرا، وأسقيناكم لبنا إذا جعلناه شربا دائما فإذا أرادوا أنهم جعلوه شربا قالوا سقيناهم فنحن نسقيهم بتعبير ألف وقرأ ذلك عامة أفراد أهل المدينة سوى أبي جعفر، ومن أهل العراق عاصم "نسقيكم " بفتح النون من سقاه الله، فهو يسقيه، والعرب قد تدخل الألف فيما كان من السقي غير دائم، وتنزعها فيما كان على ما قلنا من ذلك، وإن كان أشهر

الكلامين عندها ما قال الكسائي بدل على ما قلنا من ذلك. قول أحدهم في صفة سحاب

سقى قومي بن مجد وأسقى منبرا والقبائل من هلال

فجمع اللغتين كلتيهما في معنى واحد. فإذا كان ذلك كذلك فبأية القراءتين قرأ القارئ فمصيب غير أن أعجب القراءتين، قراءة ضم النون لما ذكرت من أن أكثر الكلامين عند العرب منها كان دائما من السقي أسقى بالألف فهو يسقي. وما أسقى الله عباده من بطون الأنعام فدائم لهم غير منقطع عنهم، وأما قوله " مما في بطونه وقد ذكر الأنعام قبل ذلك. وفي جمع والهاء في البطون موحدة فإن أهل العربية في ذلك أقوالا: فكان بعض نحوي الكوفة يقول النعم والأنعام شيء واحد لأنها جميعا معان فرد الكلام في قوله " مما في بطونه " إلى التذكير مراد به معنى النعم إذا كان يؤدي عن الأنعام.

وقوله من بين فرث ودما لبنا خالصا: يقول نسقيكم لبنا نخرجه لكم من بين فرث ودم خالصا، يقول خلص من مخالصة الدم والفرث فلم يختلط به، " سائغا للشاربين " يقول يسوغ لمن شربه فلا يغص الغاص بعض ما يأكله من الأطعمة. وقيل أنه لم يغص أحد باللبن قط }12.

أما ابن كثير فيقول:{ يقول تعالى وإن لكم أيها الناس " في الأنعام" وهي الإبل والبقر والغنم " لعبرة " أي الآية ودلالته على حكمة خالقها وقدرته ورحمته ولطفه "نسقيكم مما في بطونه" فرده ههنا عودا على معنى النعم أو الضمير عائد على الحيوان فإن الأنعام حيوانات أي نسقيكم مما في بطن هذا الحيوان. وقوله: " من بين فرث ودم لبنا خالصا " أي نخلص الدم ببياضه وطعمه إذا نضج الغذاء في معدته فيصرف منه دم إلى العروق ولبن إلى الضرع وبول إلى المثانة، وروث إلى الخارج " المخرج" وكل منهما لا يشوب الآخر ولا يمازجه بعد انفصاله عنه ولا يتغير به، وقوله " لبنا خالصا

سائغا للشاربين" أي لا يغص به أحد ولما ذكر اللبن وأنه تعالى جعله شرابا للناس سائغا ثنى بذكر ما يتخذه الناس من الأشربة من ثمرات النخيل والأعناب13. ومن هذا المعنى قوله تعالى " ألا لله الدين الخالص " أي الصافي من شوائب الشرك والبدع والمعاصي. قال ابن الجوزي في تفسير هذه الآية: { الخالص من الشرك وما سواه ليس بدين الله الذي أمر به. وقيل: المعنى تصف الدين الخالص إلا لله }14.

أما ابن جرير الطبري فقال: { خالصة لا شريك لأحد معه فيها. فلا ينبغي ذلك لأحد لأن كل ما دونه ملكه وعلى المملوك طاعة مالكه لا من لا يملك منه شيئا15.

3 - الإخلاص بمعنى الاختصاص والخصوصية:

قال تعالى: " **يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك، بنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتي هاجرن معك وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين**"16. أي خاصة بك دون غيرك.

ومنه قوله تعالى " **وقالوا ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا**" 17 أي خاص بالذكور دون الإناث، ومنه قوله تعالى: " **قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين**"18. كانت اليهود تزعم أن الله لم يخلق الجنة إلا لإسرائيل وولده. فنزلت هذه الآية.

ومن الدليل على علمهم بأن الرسول صلى الله عليه وسلم أنهم ما تمنوا الموت، وأكبر الدليل على صدقة أنه أخبر أنهم لا يتمنونه بقوله " ولن يتمنوا فما تمناه أحد منهم والذي قدمته أيديهم قبل الأنبياء وتكذيبهم وتبديل النور19 ومعنى هذه الآية أنها خاصة بكم دون غيركم.

وقال صاحب الكشاف في معنى هذه الآية خالصة نصب على الحال من الدار الآخرة، والمراد الجنة، أي سالمة لهم خاصة بكم ليس لأحد سواكم فيها حق. يعني إن صح قولكم لن يدخل الجنة إلا من كان هودا " الناس" للجنس. وقيل للعهد وهم المسلمون " فتمنوا الموت إن كنتم صادقين" إذن من أيقن أنه من أهل الجنة اشتاق إليها، وتمنى سرعة الوصول إلى النعيم والتخلص من الكدرات الشوائب20.

ومنه قوله تعالى: " **قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة لذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون**"21

قال ابن الأنباري: خالصة، نصب على الحال من لام مصغرة تقديرها هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا مشتركة. وهي لهم في الآخرة خالصة. فحذفت اللام لوضوح معناها.

قال المفسرون: إن المشركين شاركوا المؤمنين الطيبات فأكلوا ولبسوا ونكحوا بما يخلص الله الطيبات في الآخرة للمؤمنين وليس للمشركين منها شيء، وقيل خالصة لهم من ضرر وإثم. وقرأ نافع " خالصة " بالرفع ". قال الزجاج: ورفعها على أنه خبر بعد خبر والمعنى قل هي ثابتة خالصة خاصة للذين آمنوا في الدنيا خالصة خاصة يوم القيامة22.

أما ابن كثير فقال: هي مخلوقة لمن آمن بالله وعبده في الحياة الدنيا وأن أشركهم فيها الكفار في الدنيا فهي لهم خالصة يوم القيامة، لا يشركهم فيها أحد من الكفار. فإن الجنة محرمة على الكافرين23. وعليه فإن الدنيا مزرعة للآخرة وأن متعلق هذه الخصوصية هو الإيمان في هذه الحياة الدنيا.

4 - الإخلاص بمعنى التوحيد والتطهير: لقد ورد الإخلاص بمعنى التوحيد وبمعنى التطهير على بعض القراءات، والإخلاص بمعنى التوحيد هو الغالب

في آيات الإخلاص في القرآن، ومنه قوله تعالى: " **قل أتحاجوننا في الله وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون** " يقول الزمخشري: قرأ زيد بن ثابت – أتحاجوننا بإدغام النون والمعنى أتجادلوننا في شأن الله واصطفائه النبي من العرب دونكم، وتقولون: لو أنزل الله على أحد لأنزل علينا وترو أنكم أحق بالنبوة منا: " وهو ربنا وربكم " نشترك جميعا في أننا عباده، وهو ربنا فهو يصيب برحمته وكرامته من يشاء من عباده لا يختص به عجمي دون عربي، إذا كان أهلا للكرامة: " ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم "، يعني أن العمل هو أساس الأمر وبه العبرة، وكما أن لكم أعمال يعتبرها الله في إعطاء الكرامة ومنعها، فنحن كذلك، ثم قال: " ونحن له مخلصون " فجاء بما هو سبب الكرامة، أي نحن له موحدون نخلصه بالإيمان فلا يستغنوا أن يؤهل أهل إخلاصه لكرامته بالنبوة. وكانوا يقولون نحن أحق بأن تكون النبوة فينا لأنا أهل كتاب والعرب عبدة أوثان24.

أما ابن عاشور فقال:{ " بأنه استئناف من قوله: قولوا آمنا بالله كما تقدم هنالك. وتحاجوننا خطاب لأهل الكتاب لأنه جواب كلامهم السابق، والدليل قوله الآتي " أيقولون أن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هودا أو نصارى" . والاستفهام للتعجب والتوبيخ، ومعنى المحاجة في الله الجدل في شؤونه بدلالة الاقتضاء أي لا محاجة في الذات لما هي ذات، والمراد: الشأن الذي حمل أهل الكتاب على المحاجة مع المؤمنين فيه وهو ما تضمنه بعثة محمد صلى الله عليه وسلم من أن الله نسخ شريعة اليهود والنصارى، وأنه فضله وفضل أمته، ومحاجتهم راجعة إلى الحسد واعتقاد اختصاصهم بفضل الله تعالى وكرامته. فلذلك كان لقوله " وهو ربنا وربكم" موقع في تأييد الإنكار أي بلغت بكم الوقاحة إلى أن تحاجونا في

إبطال دعوة الإسلام بلا دليل سوى زعمكم أن الله اختصكم بالفضيلة مع أن الله ربنا كما هو ربكم، فلماذا لا يمن علينا كما من به عليكم.

وجملة وهو ربنا حالية أي كيف تحاجوننا في هاته الحالة المعروفة التي لا تقبل الشك. وبهذه الجملة حصل بيان لموضوع المحاجة، وكذلك جملة " ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم " وهي عطف على الحال ارتقاء في إبطال مجادلتهم بعد بيان أن الربوبية تؤهل لأنعامه، كما أهلتهم ارتقاء فجعل مرجع رضى الله تعالى على عباده أعمالهم، فإذا كان قد أكرمكم لأجل الأعمال الصالحة فلعله أكرمنا لأجل صالحات أعمالنا فتعالوا فانظروا أعمالكم وانظروا أعمالنا تجدوا حالنا أقرب إلى الصلاح منكم.

وجملة " ونحن له مخلصون " عطف آخر على جملة الحال وهي ارتقاء ثالث لإظهار أن المسلمين أحق بإضافة الخير، فإنهم وإن اشتركوا مع الآخرين في الربوبية وفي الصلاحية لصدور الأعمال. فالمسلمون قد أخلصوا دينهم لله، ومخالفوهم قد خلطوا عبادة الله بعبادة غيره، أي فلماذا لا نكون نحن أقرب إلى رضى الله منكم إليه، والجملة الاسمية مفيدة الدوام على الإخلاص كما تقدم في قوله " ونحن له مخلصون "}25.

أما ابن كثير: { " يقول الله تعالى مرشدا نبيه صلوات الله وسلامه إلى درء مجادلة المشركين " قل تحاجوننا في الله " أي تناضروننا في توحيد الله والإخلاص له والانقياد واتباع أوامره وترك زواجره. " هو ربنا وربكم " المتصرف فينا وفيكم، المستحق لإخلاص الألهية له وحده لا شريك له. " ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم " أي نحن براء منكم ومما تعبدون وأنتم براء منا. كما قال في الآية الأخرى " فإن كذبوك فقل لي عملي ولكم أعمالكم ". أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون" وقال تعالى: " فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن تبعني " إلى آخر الآية. وقال تعالى إخبارا عن

إبراهيم وخاصة قومه: " قال أتحاجونني في الله " إلى آخر الآية. وقال تعالى: " ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه " 26 الآية، وقال في هذه الآية الكريمة " ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون " أي نحن براء منكم كما أنتم براء منا، ونحن له مخلصون أي في العبادة والتوجه}27.

ومن آيات الإخلاص بمعنى التوحيد أيضا قوله تعالى: " إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا والذين تابوا و أصلحوا و اعتصموا بالله وأخلصوا دينهم فأولئك مع المؤمنين و سوف يؤت الله المؤمنين أجرا عظيما "28 أي بدلوا الرياء بالإخلاص، ودفعوا عنه الشرك ووحدوا الله وقيل في سبب نزول هذه الآية: أن قوما قالوا عند ذكر مستقر المنافقين: فقد كان فلان وفلان منافقين، فتابوا فكيف يفعل بهم، فنزلت هذه الآية29 و قوله تعالي: " قل أمر ربي بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين "30 وقوله أيضا "هو الذي يسيركم في البحر حتى إذا كنتم في الفلك... و ظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين " 31 و قوله تعالي: " فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذ هم يشركون "32 وقوله تعالى: "وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد وما يجحد بآيتنا إلا كل ختار كفور "33 وقوله تعالى: " وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء "34 و كل هذه الآيات دالة على أن الإخلاص بمعنى التوحيد.

ومن مجيء آيات الإخلاص بمعنى التطهير على بعض القراءات قوله تعالى: " ولقد همت به وهم بها لولا أن رءا برهان ربه ، كذلك لنصرف عنه السوء و الفحشاء إنه من عبادنا المخلصين "35 الهم بشيء في كلام العرب: حديث المرء نفسه بمواقعته ما لم يوقع بواقع، فقال

المفسرون: دعته إلى نفسها و أسلمت له، واختلفوا في همه لها على خمسة أقوال:

و قوله تعالى: " لولا أن رأى برهان ربه " جواب " لولا " محذوف، قال الزجاج المعنى : لولا أن رأى برهان ربه لأمضى ما هم به. قال ابن الأنباري لزنا. فلما رأى البرهان كان سبب انصراف الزنا عنه.

و قوله " كذلك " أي كذلك أريناه البرهان، " لنصرف عنه السوء" و هو خيانة صاحبه، "و الفحشاء" ركوب الفاحشة، " إنه من عبادنا المخلصين ". قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر بكسر اللام. والمعنى أنه من عبادنا الذين أخلصوا دينهم، وقرأ عاصم وحمزة والكسائي بفتح اللام، أرادوا من الذين أخلصهم الله من الأسواء والفواحش وبعض المفسرين يقول: السوء الزنى والفحشاء: المعاصي36

وقال ابن كثير:{ قيل المراد بهمه بها خطرات حديث النفس. حكاه البغوي. وأما البرهان الذي رآه ففيه أقوال أيضا، قال ابن جرير: والصواب أن يقال: إنه رآه آية من آيات الله تزجره ما كان به، وجائز أن يكون صورة يعقوب، وجائز أن تكون صورة الملك، وجائز أن يكون ما رآه مكتوبا من الزجر عن ذلك ولا حجة قاطعة على تعيين شيء من ذلك. فالصواب أن يطلق كما قال الله تعالى: " **كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء** " أي كما أريناه برهانا صرفه عما كان فيه، كذلك نقيه السوء والفحشاء في جميع أموره. " **إنه من عبادنا المخلصين**" أي المجتبين المطهرين المختارين المصطفين الأخيار. صلوات الله وسلامه عليه}37.

أما الزمخشري فيقول: { " **ولقد همت به** " معناه: لقد همت بمخالطته، " **وهم بها**" وهم بمخالطتها، " **لولا أن رأى برهان ربه** " جوابه محذوف مما يدل عليه، كقولك: هممت بقتله لولا أني خفت الله، معناه لولا

أني خفت الله لقتله. فإن قلت كيف جاز على نبي الله أن يكون منه هم بالمعصية وقصد العقاب. قلت: المراد أن نفسه مالت إلى مخالطته ونزعت إليها عن شهوة الشباب، وكما تقتضيه صورة تلك الحال التي تكاد تذهب بالعقول والعزائم، وهو يكسر ما به ويرده بالنظر في برهان الله المأخوذ عن المكلفين من وجوب اجتناب المهام، ولو لم يكن ذلك الميل الشديد المسمى هما لشدته لما كان صاحبه ممدوحا عند الله بالامتناع، لأن استعصام الصبر على الابتلاء على حسب عظم الأنبياء وشدته، ولو كان همه كهمها عن عزيمة لما منحه الله بأنه من عبادنا المخلصين، ويجوز أن يريد بقوله: وهم بها وشارف أن يهم بها. إن الهم لا يتعلق بالجواهر، ولكن بالمعاني، فلا بد من تقدير المخالطة، والمخالطة لا تكون إلا من اثنين معا، فكأنه قيل: ولقد هما بالمخالطة لولا أن منع مانع أحدهما؟ قلت: نعم ما حلت، ولكن الله سبحانه قد جاء بالهمين على سبيل التفصيل بمخالطتهما على أن المراد بالمخالطتين تؤهلها إلى ما هو حظها من قضاء شهوتها منه، وتوصله إلى ما هو حظه منها. قضاء شهوته منها. لولا أن رأى برهان ربه، فترك التوصل إلى حظه من الشهوة، فلذلك كانت لولا حقيقة بأن تعلق بهم بها وحده، وقد فسرهم يوسف بأنه حل الهميان وجلس منها مجلس المجامع،... لذلك الكاف منصوب المحل: أو مثل ذلك السبب أو مرفوعة لأمر ذلك: لنصرف عنه السوء" من خيانة السيد " والفحشاء " من الزنى " إنه من عبادنا المخلصين" الذين أخلصوا دينهم لله}38.

ثالثا: الدعوة إلى الإخلاص وقيمته.

1 - الدعوة إليه

لقد دعا الإسلام إلى الإخلاص ورغب فيه فقال تعالى: " **قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت و أنا أول المسلمين "39.**

و قد أمر تعالى به فقال: " **وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء "40** وجعل قبول الأعمال رهنا به، و وقفا عليه. أي يجب أن نخرج الخلق من قلوبنا في أعمالنا. فكل عمل يراد به غير الله مردود على صاحبه. لا ترى العمل الصالح صادرا منك بل منه، فهو الذي وفقك وهو الذي خلق فيك القدرة على العمل، وإذا نظرت هذه النظرة في تمحص العمل لله ولم تحب أن يحمدك الخلق، ولا تخشى من مذمتهم لك لأن عملك لم يكن منك منشؤه ومصدره، بل من فضل الله تعالى عليك.

و اعمل على أن تكون حراكاتك وسكناتك وسرك وعلانيتك لله، كما بنيت لك من قبل، وذلك بالنية. وأحذر من الشيطان أن يستولي على قلبك ولا يستولى على قلبك إلا عند فساد نيتك. فإذا تغيرت نيتك وراءيت بعملك، طمع فيك الشيطان وتسلط عليك.

ومهما كان العمل صغيرا فأحضر فيه نية وإخلاصا يعظم العمل، وإخلاص العمل لله أن تريد بقلبك وعملك وعلمك وفعلك رضا الله تعالى، خوفا من سخط الله، كأنك تراه حقيقة علمك بأنه يراك حتى يذهب الرياء عن قلبك.

فأداء العمل على أكمل الوجوه مع الإخلاص للعمل لوجه الله وابتغاء ما عنده من الأجر يساوي العمل الصالح المقبول بفضل الله تعالى. قال الفضيل في تفسير هذه الآية: " **ليبلوكم أيكم أحسن عملا "41**، قال: أخلصه و

أصوبه، قيل: وما ذاك؟ قال: العمل إذا كان خالصا و لم يكن صوابا لم يقبل، أما إذا دخلت في العمل الصالح على الإخلاص وخرجت منه على الإخلاص، فقد أحرزته كاملا إلا أنك إذا فعلته سرا وكتمته دام لك. وإن بدا لك أن تظهره انتقل من ديوان السر إلى ديوان العلانية42.

2 - الإخلاص دليل كمال الإيمان:

ينبغي أن تكون لكل مؤمن نية في كل شيء حتى في مطعمه و مشربه و ملبسه و نومه و نكاحه، ففي المطعم و المشرب و الملبس و النوم و النكاح تنوي التقوى علي طاعة الله تعالي و ستر العورة التي أمر الله بسترها إظهار نعمة الله عليه، فإن فعلنا ذلك كانت في ميزان الحسنات، وإن كانت في سبيل الهوى ولغير الله كانت في ميزان السيئات، " إنما الأعمال بالبينات وإنما لكل امرئ ما نوى "43 وإذا لم تكن لك نية وكنت غافلا ساه عنها لم يكن لك في ذلك شئ ولم تجد في صحيفة عملك غدا شيئا. فقد ورد في الأثر أن رسول الله صلي الله عليه وسلم قال: " من أحب لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله فقد استكمل الإيمان"44، والله لا ينظر إلى المظاهر والأشكال. ففي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:" إن الله لا ينظر إلي أجسامكم ولا إلي صوركم ولكن ينظر إلي قلوبكم"45.

وللنية معنيان: **أحدهما:** صحة قصد القلب إلى العمل، فيكون توجه قلبك إلى العمل صحيحا: تقبل على العمل بكل نيتك بحيث تنوي أداءه على أكمل الوجوه.

وثانيهما: الإخلاص في العمل لوجه الله تعالى، ابتغاء ما عنده من الأجر. فكل عمل تريد عمله يجب أن يكون عن علم. وبهذه النية فإنه عمل صالح

متقبل بفضل الله تعالى ورحمته لأنك اتقيت به الجهل والشرك والهوى. فالنية هي الإخلاص والنجاة يوم القيامة 46.

3 – قيمته:

والإخلاص والنية الطيبة تبلغ بالإنسان الذروة من السمو والرفعة، وتنزله منازل الأبرار، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: " طوبى للمخلصين "47 والإخلاص في العمل نجاة بما يتعرض له المرء من محن ومخاطر يشهد لذلك حديث الثلاثة الذين أواهم المبيت إلى غار فدخلوه، فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار، فدعوا الله بصالح أعمالهم، ففرج الله عنهم وانزاحت الصخرة فخرجوا. والاتصاف بصفة الإخلاص والصدق يكسب الفرد النجاح، والجماعة التي تتألف من أفراد مخلصين تتجه إلى الخير وتتنزه عن الدنيا، وتترفع عن الشهوات وتسير إلى غاياتها، فتتخللها المحبة ويحميها الأمن والسلام.

ولقد كان التحلي بحلية الإخلاص سببا في تطهير نفس الصحابة من الرياء والنفاق والكذب، فاندفعوا إلى غايتهم الكبرى، ينشدون إقامة العدل والحق، ويتقون وجه الله وإعلاء كلمته فمكن الله لهم في الأرض، وجعلهم قادة الدنيا وسادة العالم. ومن رحمة الله بعباده وفضله عليهم أن الأعذار التي تحول بين المرء وبين ممارسته الأعمال الصالحة لا تنقص من مكانته عند الله مادام مخلصا. فقد روي عن أنس بن مالك عن أبيه أن رسول الله صلى عليه وسلم قال: لقد تركتم في المدينة أقواما ما سرتم مسيرا ولا أنفقتم من نفقة ولا قطعتم من واد إلا وهم معكم فيه، قالوا يا رسول الله: وكيف يكونون معنا وهم بالمدينة. قال: حبسهم العذر "48.

وفي حديث عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " ما من امرئ تكون له صلاة بليل يغلبه عليها نوم إلا كتب له أجر

صلاته، وكان نومه عليه صدقة "49 وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " من سأل الله الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه" 50.

وختاما نقول أن أفضل الأعمال على الإطلاق ما دخلت فيه الإخلاص ولم يطرأ عليه ما يحبطه، وأفضل النيات أن تريد بعملك وجه الله تعالى وحده تعظيما له وإلزاما لنفسك وصف العبودية ورجاء ما عنده وخوفا مما عنده.

الهوامش:

1 -معجم مقاييس اللغة: أحمد بن فارس،، 2/ 50.

2 - الكليات: الكفوي، ص: 376.

3 - لسان العرب المحيط : ابن منظور ،2/140.

4 - أحياء علوم الدين: أبو حامد الغزالي 4/ 379 .

5 - نفسه.

6 - سورة ص الآية: 46 - 47 .

7 - زاد المسير في علم التفسير: ابن الحوري ،7/146- 147 .

8 - الكشاف: الزمخشري، 7/378.

9 - تفسير القرآن العظيم : ابن كثير7/69..

10- النحل : 66 .

11- زاد المسير في علم التفسير: ابن الجوزي، 4/464 .

12- جامع البيان في تأويل القرآن: ابن جرير الطبري،7/605 - 607 .

13- تفسير القرآن العظيم: ابن كثير، 4/204 .

14- زاد المسير في علم التفسير: ابن الجوزي، 7/166.

15- جامع البيان: الطبري، 7/611.

16- الأحزاب: 50.

17- الأنعام: 39.

18- البقرة: 94.

19- زاد المسير في علم التفسير : ابن الجوزي، 116/1.

20- الكشاف: الزمخشري، 197/1.

21- الأعراف: 32.

22- زاد المسير في علم التفسير: ابن الجوزي، 189/3.

23- تفسير القرآن العظيم: ابن كثير، 162/3.

24- الكشاف: الزمخشري، 136/1.

25- التحرير والتنوير: بن عاشور، 145/1.

26- البقرة: 16.

27- تفسير القرآن العظيم: ابن كثير، 162/3.

28- الأعراف: 29.

29- نفسه.

30- الأعراف: 29.

31- يوسف: 22.

32- العنكبوت: 65.

33- لقمان: 32.

34- البينة:5.

35- يوسف: 22.

36- زاد المسير في علم التفسير: ابن الجوزي، 201/3 – 210.

37- تفسير القرآن العظيم: ابن كثير، 20/4.

38- الكشاف: الزمخشري، 311/2.

39- الحج: 15

40- البينة: 5

41- الملك: 2

42- الإخلاص: سعد محمد سعيد الصاغرجي، ص: 53.

43- أخرجه مسلم.

44- أخرجه أصحاب السنن.

45- أخرجه مسلم.

46- الإخلاص: سعد محمد سعيد الصاغرجي، ص: 60.

47- أخرجه أصحاب السنن.

48- سنن أبي داود، 3/3.

49- نفسه، 34/3.

50- الدارمي في مسنده، 205/3.

مصادر ومراجع البحث:

1 – معجم مقاييس: اللغة: أبي الحسن أحمد بن فارس بن زكرياء، تحقيق وضبط، عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، ط 1، 1411 هـ، 1991م.

2 – لسان العرب المحيط: ابن منظور، تصنيف يوسف خياط،دار الجيل، بيروت، 1408 هـ 1988م.

3 – جامع البيان في تأويل أي القرآن: أبي جعفر محمد بن جرير الطبري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1412 هـ، 1992 م.

4 – الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: أبي القاسم جار الله بن عمر الزمخشري، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

5 – زاد المسير في علم التفسير: عبد الرحمن بن الجوزي، ط 2، 1404هـ، 1984م.

6 – تفسير القرآن العظيم: إسماعيل بن كثير، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، ط 2، 1400 – 1980.

7 – التحرير والتنوير: محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م.

8 – إحياء علوم الدين: أبي حامد الغزالي، دار المعرفة، بيروت.

9 – موسوعة أخلاق القرآن: د/ الشرباصي، دار الرائد العربي، ط 2، 1408 هـ، 1987م.

10 – الدين الخالص: محمد صديق حسن القنوجي البخاري، ضبط وتصحيح وتخريج آياته، محمد سالم هاشم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1415هـ، 1995م.

11 – الإخلاص: الشيخ سعد محمد سعيد الصاغرجي، دار القبلة للثقافة الإسلامية، دار الفكر، الجزائر،1413 هـ 1992م.